الباب الرابع

السير الأدبية

السير الأدبية

خلف هيكل كتبا عدة تناول فيها بالدراسة والتحليل شخصيات تاريخية متنوعة، والتاريخ الزمنى لصدور هذه الكتب يرسم خطا بيانيًا واضحًا لتطور هيكل الفكرى، وعلاقة هذا التطور بمسيرة الثقافة العربية فى مصر، فقد أصدر فى سنة ١٩٢١ الجزء الأول عن جان جاك روسو، وهذا الكتاب نشره هيكل رغبة منه فى أن يحدث تمازجا فكريا بين الشرق والغرب، ليتم الاتصال بينهما، ويكون هذا الاتصال وسيلة لخلق صورة فكرية جديدة، تحتذى الغرب وتقتدى بحضارته فى مجالات الفكر والثقافة بحضارته، وتقتبس من نماذجه الكثير.

كما «أصدر سنة ١٩٢٩ كتابه «تراجم مصرية وغربية»، ويلفت فى عنوان الكتاب أنه يبرز المصرية ويفرد فصولاً لبعض الشخصيات المصرية التاريخية والأدبية، تستغرق أكثر من ثلثى الكتاب. ولهذا دلالة فكرية توصلنا بالخط البيانى الأول، هذه الدلالة تعنى أن هيكل بعد أن كان يرى أن السبيل إلى إقامة نهضة ثقافية فى مصر يكون باحتذاء نماذج الغرب أصبح يرى أن السبيل إلى ذلك يكون بإحياء الحضارة المصرية القدمة واستلهامها، لتكون مصدرًا للنهضة الجديدة فى الفكر والأدب، التى يرغب فى قيامها -كما سبق توضيح ذلك فى الباب الثانى.

وفى السنوات الأولى من ثلاثينيات هذا القرن يغزو مصر وغيرها من بلدان الشرق حركة تبشيرية مسيحية واسعة النطاق، فيعتصم كثير من رواد الحركة الفكرية فى مصر بحمى دينهم المقدس يحيون ذكراه وقصص رسوله وسير أعلامه. ولقد لجأ إلى هذا كثير من الأدباء فى مصر مثل العقاد رحمه الله الذى سبق الجميع بعبقرياته الدينية، ثم الدكتور طه حسين فى كتابه «على هامش السيرة»، كما أصدر هيكل مؤلفه الضخم «حياة محمد» وبعده أخرج كتاب «فى منزل الوحى»، بل إن توفيق الحكيم أخرج كتابًا عن الرسول بعد ذلك بمدة فى ثوب تمثيلى، وقد سار فى هذا الاتجاه أدباء ومفكرون كثيرون.

تقف عند هذا الاتجاه الدينى لنكمل الخط البيانى لتطور هيكل الفكرى، ذلك أن هيكل بعد أن كان يرى أن السبيل إلى إقامة بعث فكرى، يكون بتقليد الغرب أو احتذاء ما يلهمه التراث الفرعونى، ألغى هذا وذاك وأصبح يرى أن السبيل الصحيح إلى ذلك يكون ببعث الحضارة العربية والتاريخ الإسلامى، لأنه رأى أن الحضارة لا تبعث من غير روح، والروح الوثابة التى تضمن قيام حضارة سليمة هى روح الإسلام وروح العروبة - كما نص على ذلك فى تقديمه لكتاب «فى منزل الوحى».

هكذا ترسم كتب هيكل فى التراجم الأدبية صورة واضحة لتطوره الفكرى، وكيف أنه استقر أخيرا على أن الحضارة العربية والدين الإسلامى الذى أنشأ هذه الحضارة هما السبيل السليم إلى بعث حضارة جديدة ونهضة بناءة. على هذه الأسس نحمل كتب هيكل فى هذا الباب ذلك المغزى الذى أوضحناه.

وما خلفه هيكل فى التراجم غنى بالمعانى والإيحاءات، وهذا الفن فن السير والتراجم عريق فى الأدب العربى، ذلك أن الترجمة للأشخاص قديمة قدم الإنسان نفسه، وما خلفه الأدب والتاريخ العربى فى هذه الناحية يعد بحق مفخرة نعتز بها[1].

وسنلقى على ما خلفه هيكل من كتب نظرة تحليلية، ثم نبين فى النهاية موقف هذه الكتب من الأنواع الأدبية.

* * *

جان جاك روسو

هذا الكتاب -الذى نشر الجزء الأول منه سنة ١٩٢١، والثانى ١٩٢٣، والباقى لما يزل مخطوطا- أول عمل أدبى متكامل أنتجه هيكل بعد «زينب» وبعد عودته من أوربا. ولاشك أن الإعجاب بالأدب الفرنسى عامة وبروسو خاصة كان من الأسباب التى جعلت هيكل يقرأ معظم تراثه بتفكير وإمعان، ثم يحاول الكتابة عنه، وهيكل يعلن ذلك بصراحة فى رده على مقال لصديقه طه حسين فيذكر: «لكنك يا صديقى تعلم ما انطوت عليه نفسى، وتعلم أنى لا أكتب إلا ما يكون متاعًا لى ولذة، فإذا نشرته بعد ذلك، فلأنى لا أستطيع المحافظة عليه، وأخشى أن يضيع وقد أحتاج إليه يوما لأتلذذ

(١) لمزيد من المعرفة فى هذا المجال يراجع كتاب: التراجم والسير لمحمد عبد الغنى حسن، الترجمة الشخصية لشوقى شيف، فن السيرة لإحسان عباس.

بمجهوداتى الماضية فى الساعات المجدبة من حياة العصر الحاضر. وهذا هو ما دعانى لتقسيم ما كتبت عن روسو إلى ثلاثة أجزاء، فكنت كلما فرغت من قسم من بحثى، وهجمت علىّ مشاغل الحاضر، وخشيت أن أوخذ بها إلى حد نسيان ما كتبت، قدمته للطبع كى لا يضيع، وهذه غاية يكفى لبلوغها أن يطبع بأقل نفقة ممكنة ومن غير عناء»(١).

نستدل من هذا على أن هيكل كان يجد متعةً ولذة فيما يقرأ أو يكتب عن روسو، لذلك نرى أن إعجاب هيكل بروسو -كما يتضح من الكتاب- لا يقتصر على الإعجاب بأعماله وأفكاره فحسب، بل يتعدى ذلك إلى أسلوبه الذى يذكر فى المقدمة أنه موسيقى ممتاز، كما يرى أن تراث روسو هو: «النور الذى يبين لنا قى خلال دياجى المستقبل الوجه الأصح من وجوه فطرتنا الإنسانية المركبة الذى تكون هدايته لنا أضمنُ لسعادتنا فى الحياة»(٢).

وهذا يعنى أن هيكل كان شديد الإعجاب بروسو الكاتب النفسى والناقد الاجتماعى الثائر على عصره وأوضاعه وظروفه وما كان يحمله فى طياته من ظلم وقسوة للطبقة البورجوازية التى كانت تتزعم الاتجاه السائد للشعب الفرنسى، فأصدر فى خطاب له على الفنون نعيًا شديدًا لها، لأنها إنما تنشأ وليدة الترف الذى أحيا طبقة الأمراء وأفنى إنسانية الفقراء. كذلك يتعدى الإعجاب إلى ما جاء فى «العقد الاجتماعى» من حيث المناداة باحترام الفرد أيا كان كإنسان له ذاتيته وكرامته. وفى كتاب روسو عن التربية أو «أميل» يرسم طريقة للتربية تحددها الطبيعة التى تهدى بنفسها إلى الخير وتقود إليه، فإذا تدخلنا فى عمل الطبيعة أوجدنا الشر وخالفنا طبيعة الكون. وكما كانت هذه الآراء مشعلا ونبراسا للقائمين بثورة فرنسا الكبيرة، فقد كانت موضع إعجاب هيكل، بل نستطيع أن نقول فى شىء من الاطمئنان إن هذه الآراء قد انصهرت فى تفكيره فكان يصدر عنها هيكل فى بعض كتاباته.

وإذا ما أدركنا أن روسو بقصته المعروفة «هولويز الجديدة» أول من بشر بين أدباء عصره بالرومانسية، وعرفنا أن هيكل بقصته زينب أول من أوجد الرومانسية فى تاريخ الرواية العربية، إذا عرفنا ذلك فلا يمكن أن ننفى بعض أوجه الشبه التى قد توجد بين هيكل وروسو، ويقرب هذه الحقيقة إلى الأذهان أن بعض النقاد يشترط فى كتابه

---

(١) فى أوقات الفراغ، ص ١٩٦.

(٢) مقدمة روسو، جـ ١ ص ى.

الترجمة الغيرية الأدبية أن يكون المترجم معجبا بشخصية المترجم له. وهذا الإعجاب الذى يترجمه تأثر هيكل بفكر روسو وأدبه هو ما يدعونا إلى أن نكرر ما سبق أن قلناه من أن روسو يعدُّ من الأساتذة الذين تتلمذ هيكل على تراثهم.

سبب آخر حدا بهيكل إلى أن يترجم لسيرة روسو، وهو حرصه على نقل تراثه إلى العربية رغبة منه فى وضع نماذج صالحة للاحتذاء والتمثل، فيذكر: «ولكنى كمصرى أولا، وكشرقى ثانيًا، أريد أن أعرض على أبناء مصر والشرق صورة من قوة حيوية قامت فى الغرب، لعل فى عرضها ما يجعل الصلة بين الشرق والغرب ممكنة على أساس التفاهم الحر المخلص.. وأنفى ما قاله أحد كتاب الإنجليز من أن الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا»(١)

لكن هيكل كان يعتقد أنه من الممكن أن يحدث الالتقاء عن طريق التزاوج الفكرى وتناقل التراث الحضارى بين الاثنين، ومن أدوات ذلك فيما يرى نقل الأفكار المتبادلة بين مختلف الأقطار نقلاً أمينًا صحيحًا، ووصف حياة الأبطال وصفًا بعيدًا عن كل تحيز.

هذه هى أهم الأسباب التى حدت بهيكل ليكتب عن روسو فماذا كتب؟ لا شك أن فيما قدمه هيكل عن روسو نقل كثير من كتاب «الاعترافات» الذى كتبه روسو عن نفسه، كما يتضح من إشاراته الكثيرة إليه فى كتابه.

والكتاب يعطينا فى أسلوب أدبىّ صورة لنشأة روسو وأسرته وحياته الأولى التى صادفها كثير من الفشل فى العمل، كما لازمها هذا الفشل فى إقامة علاقات عاطفية مبكرة فى شبابه، ويبين لنا المؤلف أن روسو ظل شيئًا مهملاً إلى أن امتهن الموسيقى فعرفته بالنساء، وأوصلته النساء إلى مكانة مرموقة فى المجتمع، فبدأ روسو يدخل التاريخ يوم أعجب ريشليو بأوبرا له.

ويدافع هيكل عن حياة روسو البوهيمية التى كانت يعيشها حينئذ مع عشيقة له تُدعى تريز لفاسير، وكان ينجب منها الأطفال ولا يتورع عن أن يتركها تودعهم الملاجىء. ومما يذكره هيكل فى دفاعه عنه فى هذا الصدد قوله: «وإنا نعتقد أن الجريمة مهما كانت كبيرة فى حد ذاتها، فإن ما عرفناه حتى الآن من حياة روسو المتشردة التى جعلته أقرب لأن يكون من اللقطاء، هى التى هونت على نفسه الأمر وهى التى تجعله أقل مسئولية عن عمله»(٢).

---

(١) مقدمة روسو، ص ى.

(٢) جان جاك روسو، جـ١ ص٦٢.

بعد هذا يكتب روسو خطابه عن العلوم والفنون ويطعن فيها، وهنا **نجد هيكل التلميذ يدافع عن أستاذه** بقوله: «ولسنا نعجب من روسو فى ذلك وهو الذى صادفه النحس المستمر. فكان كغيره ينظر إلى الترف بعين غير طيبة، لأن الكثيرين يومئذ اعتقدوا أنه مصدر شقاء بلادهم. ولكنهم ضعفوا عن إظهار آرائهم أمام رأى عام مال بكله إلى الترف»[1].

ويستمر هيكل فى ترجمة حياة أستاذه، ويدافع عنه فى كل موقف يستحق الدفاع، ويعلق على كل فكرة تستحق التعليق بأسلوب يجمع بين الفكرة الواضحة، واللغةالموسيقية المعبرة تعبيرًا أدبيًا عن هذه التجربة، ذلك أن هيكل اندمج فى إطار السيرة التى كان يكتب عنها ونصَّب نفسه محاميًا للدفاع عن آرائها وأفكارها وبيان أهميتها وقيمتها وفضل صاحبها على عصره. وفى معرض التدليل على تلك المحاماة التى قام بها هيكل نذكر هذا الدفاع له عن روسو مبينًا فضله فى المناداة بنظرية عدم المساواة: «وتلك الصيحة من روسو هى من الصيحات الأولى التى ارتفعت ضد الملكية والتى تقدمت الآراء الاشتراكية. ولئن تقدم كتاب آخرون نادوا بالمساواة وقرروا أو كادوا مبدأ الكومنزم، فإن أثر روسو بخطابه عن عدم المساواة وبعقده الاجتماعى طمس على ما كتبوا، وظهر للأجيال التى تلته نبراسًا وفرقانًا، وكانت كتابات هذا البائس المتشرد على ما فيها من سفسطة غير قليلة تهز القرن الثامن عشر والأيام التى تلته من القرن التاسع عشر هزاتٍ لم يطمع فيها فولتير، ولا فكر فى شىء منها منتسيكيو»[2]. هكذا تلقانا حرارة العاطفة جياشة فى أسلوب هيكل الأدبى حين يتحدث عن آراء روسو أو آثاره الفكرية أو حين يصور مرحلة من مراحل حياته، هذه الناحية الذاتية من هيكل هى وسيلتنا لإثبات أن الكتاب ترجمة أدبية فيما بعد، حين سنتحدث عنه مع بقية تراث هيكل فى هذه الناحية.

وقبل أن نترك دراسة الكتاب يؤسفنا أن نذكر أن هيكل مات قبل أن يتم الجزء الثالث- رغم من أنه بدأ يكتب فيه منذ وقت مبكر، كما نأسف على أن الكتاب مطبوع طبعة رديئة، وحتى هذه الطبعة غير موجودة فى كثير من المكتبات العامة، ومعنى هذا أن الكتاب فى طريقه إلى النسيان إذا لم تنهض جهة رسمية بإعادة طبعه ونشره. وقد

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص٧١.

(٢) المصدر السابق، جـ١ ص٩٨.

كان هيكل نفسه يملك فى وقت من الأوقات قدرة إعادة طبعه، ولكن عدم تفكيره فى هذا أمر يدعو إلى التساؤل والدهشة.. لعل السر فى عدم تفكيره فى ذلك يرجع إلى أن الكتاب كما سبق أن أوضحنا، يمثل وجهة فكرية اعتنقها هيكل ثم انصرف عنها، وهذه الوجهة هى الدعوة إلى التأثر بالغرب والأخذ عنه لإقامة حضارة جديدة.

* * *

تراجم مصرية وغربية

هذا الكتاب الثانى (١٩٢٩) يُعد تجميعًا لكثير من المقالات التى كتبها هيكل فى السياسة الأسبوعية فيما عدا الفصل الذى كتب فيه عن كليوبترا. وقد طُبع هذا الكتاب مرة ثانية فى دار روز اليوسف بعنوان: «شخصيات مصرية وغربية». والهدف من تأليف الكتاب -كما يذكر المؤلف- أنه أراد بالقسم المصرى أن يضع أمام القارىء «صورة ولو تقريبية لحياة مصر السياسية فى هذا العصر الأخير، وما دمتُ قد بدأت هذه الصورة منذ عصر إسماعيل فقد رأيت واجب إتمامها لآخر عصرنا الحاضر»[١]

أما الجزء الثانى الذى كتب فيه عن الموسيقار بتهوفن، وهبوليت تين، ووليم شكسبير، وبرسى بيش شلى: «وهؤلاء إنما ترجمتُ لهم لمناسبات خاصة، ولأنى أحببتهم منذ زمن طويل حبًا جمًا، فلما كانت مناسبات كمرور مائة عام على موت بتهوفن أو على مولد تين أو نحوهما من المناسبات، رأيتُ واجبًا علىَّ لهذا الحب الذى أضمره لأولئك الرجال حبًا، يعادل ما أفدت من آثارهم، وما حققتْ لى من معانى السرور بها والطرب لها **أن أثبت صورة هذا الحب بإثبات صورة من حياتهم هى الصورة الممتلئة بها نفسى**»[٢]

والجزء المصرى الذى كتبه هيكل فى هذا الكتاب أراد به تأريخًا صحيحًا أو تصحيحًا لبعض قضايا تاريخ مصر فى فترة من الفترات المعاصرة[٣]. وأما ما كتبه عن كليوبترا فليدل به على بطلان الصورة الزائفة التى يضعها بعض مؤرخى الغرب لتاريخ مصر.

---

(١) تراجم مصرية وغربية، ص٥.

(٢) المصدر السابق، ص٦.

(٣) كتب فى هذا الجزء المصرى عن: كليوباترا -إسماعيل باشا - توفيق باشا - محمد قدرى باشا - بطرس غالى باشا - مصطفى كامل باشا - قاسم أمين بك - إسماعيل صبرى باشا - محمود سليمان باشا - عبد الخالق ثروت باشا.

أما الجزء الثانى فقد كتب فيه عن جماعة ممن يحبهم من الأدباء والفنانين الأوروبيين، وتناول بالحديث جانبًا أو أكثر من الجوانب التى شهروا بها، ومعنى ذلك أن هيكل فيما كتب عن المصريين المحدثين كان يعنى بكتابة التأريخ الصحيح لهم، وأما ما كتبه عن الغربيين فكان يعنى به التنويه بالناحية الغالبة فى حياة الشخص الذى كتب عنه، وهذا كله يعنى أن الكتاب وإن لم نعدم فيه الأسلوب الأدبى الرائع والحديث القريب إلى النفس لا يمكن أن يعد ما احتواه ترجمة وافية لمن كتب عنهم، وهو يقر ذلك فى المقدمة فيذكر: «ولم يكن الاسم الذى وضعته للكتاب هو الذى دار من أول الأمر بخاطرى، فإن كلمة تراجم تقتضى تناول جوانب حياة المترجم له بتدقيق وتوسع أكثر مما عالجت أنا فى هذه الرسائل. فأنا لم أتناول أغلب الأمر إلا ما اعتقدت أنه الناحية الغالبة فى حياة الشخص، والتى كان لها فيه الأثر البالغ. وأنا تناولت هذه الناحية فى إيجاز، جعلنى أختار فى نفسى اسمًا للكتاب تؤديه الكلمتان الإنجليزيتان Bi-ographical Sketches . على أنى بعد البحث مع أصحابى لم أهتد لعبارة عربية سائغة، لأن تكون عنوانًا للكتاب تؤدى هاتين الكلمتين أداء دقيقًا»[1].

كذلك يؤيد قولنا فى أن محتويات هذا الكتاب ليست ترجمة بالمعنى الدقيق الذى سوف نحدده فيما بعد، ما ذهب إليه فنسنت من أن «تاريخ حياة الأشخاص نوع من الأنواع المتفرعة عن التاريخ، وإن كان عبارة عن قصة تتناول حياة شخص من الناس»[2].

وسوف نكمل الحديث عن الكتابين بعد قليل.

* * *

حياة محمد

كتب هيكل هذا المؤلف الضخم الذى نشر لأول مرة سنة ١٩٣٥ وأعيد طبعه بعد ذلك مرات عدة. وهذا الكتاب الفريد يعد بلا شك عمدة فيما ألفه هيكل، بل يكاد يكون عمدة فى كل ما ألف عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. كذلك يعد الكتاب فاتحة عهد فكرى عربى السمات بالنسبة لهيكل، إذ إن دراسته الواسعة الواعية للإسلام ورسوله ومقوماته ومميزاته جعلته يرى الرأى الصواب الذى التزم به إلى النهاية،

(١) المصدر السابق، ص٧.

(٢) نظرية الأنواع الأدبية: ترجمة حسن عون، جـ٢ ص٥٦.

وهو أن الطريق السليم إلى إيجاد نهضة فكرية وحضارية للشرق العربى، لا تتحقق إلا ببعث الماضى الكريم والحضارة العريقة التى كانت ثمرة لتفهم الدين الإسلامى وغرسًا من عمل الرسول الكريم. وعلى هذا بدأ هيكل يكتب -فيما بعد- عن أبى بكر وعمر، ومات ولم ينه ما أراد أن يكتبه عن عثمان، إذ كان ينوى كتابة التاريخ الحق للإمبراطورية الإسلامية، وبيان النهضة الواسعة المتشعبة التى حققها الدين الإسلامى، مما يدل على أنه دين قويم وصراط مستقيم يؤدى إلى الرقى والازدهار، كما يرى أن الهدف من كتابة حياة محمد بيان «**أن هذا البحث جدير بأن يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التى تتلمسها، ذلك لأن القيم الروحية وحدها هى التى تؤسس الحياة على دعائم ثابتة. أما المادة فلا تلهم قيمًا خالدة ولا تكون نواة لحضارة أبدية.. فليست الغاية منه «البحث» دينية محضة كما قد يظن بعضهم، بل الغاية الصحيحة أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذى دلها محمد على طريقته**»[1].

أسباب التأليف

وقد دفع هيكل لتأليف الكتاب نشاط المبشرين فى مصر: فقد ظهر نشاط المبشرين بالمسيحية فى مصر فى بداية الثلاثينيات من هذا القرن، وعن هذا النشاط يذكر هيكل فى مذكراته: «فى هذا الطور ظهر نشاط المبشرين بالمسيحية فجأة فى ثوب مخيف، وقد تحدثت الصحف عن وسائل الإغراء التى يلجأ إليها المبشرون لحمل السذج على اعتناق المسيحية ولتنْصير الأطفال الأبرياء من أبناء المسلمين، وارتاع الناس لهذه الحملة التبشيرية أيما ارتياع، وجعلوا ينظرون إلى موقف الحكومة منها نظرة كلها عدم الرضا. وتألفتْ جمعية لمقاومة هذا التبشير كانت تجتمع فى دار الشبان المسلمين، كنت من أعضائها وكذلك الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى كان شيخًا للأزهر فى سنة ١٩٢٨، وكان انضمامه لهذه الجمعية التى تقاوم التبشير مما زادها قوة فى نظر الرأى العام، ومما دعا صدقى ليحسب لهذا الجو الجديد كل حساب. وكان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفى منها أن **دفعنى التفكير فى مقاومتها بالطريقة المثلى التى يجب أن تقاوم بها**، ورأيت أن هذه الطريقة المثلى توجب علىَّ أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثًا علميًّا، وأن أعرضه على الناس عرضًا يشترك فى تقديره المسلم وغير المسلم»[2].

---

(١) حياة محمد: دكتور هيكل، ص٥٩.

(٢) مذكرات فى السياسة المصرية، جـ١ ص٣٢٨.

ويؤكد الدكتور محمد حسين هذا الرأى بقوله: «لقد بلغ من تبجح وجرأة القسيس زومر أن يدخل الأزهر يومًا، ليوزع نشراته التى تفيض بالطعن على الإسلام[١].»

ويتصل بهذه الناحية -أيضًا- **التعصبُ المسيحى** الذى تحدث عنه هيكل فى مقدمة الكتاب من علماء الغرب ورجاله ضد الإسلام ورسوله: «أما المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم يعرضون بمحمد وينعتونه بأوصاف يبرأ منها المهذب من الرجال شفاءً لما فى نفوسهم من غل واستفزازًا وحفزًا لشهوات الناس الدنيا، ولقد يعجبُ الإنسان أن يظل تعصب المسيحية فى عصرٍ، يزعمون أنه عصر النور والعلم»[٢]

ويرى هيكل أن سر هذه العداوة يرجع إلى جهل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبى، وما دام الجهل من أشد أسباب الجمود والتعصب فكان من الضرورى فيما يرى أن يؤلف كتابه على نمط علمى، ليكون أكبر رد لهؤلاء المتعصبين[٣].

كذلك من الأسباب التى دفعت هيكل لتأليف كتابه محاولة تقديم السيرة بأسلوب علمى عقلانى:

إن لهؤلاء الذين يُحمِّلون الإسلام وزر انحطاط الشعوب الإسلامية عذرًا فى أنه أضيف إلى دين الله شىء كثير لا يرضاه الله ورسوله واعتبر من صلب الدين، واتهم من ينكره بالزندقة. وندع الدين جانبا ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام، فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبى ما لا يصدقه العقل، ولا حاجة إليه فى ثبوت الرسالة. «وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه المستشرقون، واعتمد عليه الطاعنون على الإسلام ونبيه وعلى الأمم الإسلامية، واتخذوه تكأتهم فى مطاعنهم المثيرة لنفس كل منصف»[٤]

معنى هذا أن هيكل أعلن أنه سيحارب المتعصبين المسيحيين بإظهار الحقيقة، كما سوف يتصدّى للمغالين من المسلمين بحذف بعض الإضافات التى أضافوها إلى أجزاء

---

(١) راجع بالتفصيل الاتجاهات الوطنية د. محمد حسين، جـ٢ ص١٤٨.

(٢) حياة محمد، ص٣.

(٣) من المعروف أن الهجوم على الإسلام قديم من المستشرقين ومفكرى الغرب، ومعروف أن الإمام محمد عبده له جهود فى الرد عليهم، كذلك قاسم أمين وغيرهما من المفكرين، ومن الجلى أن هيكل تمثل هذا أيضًا عند الكتابة.

(٤) حياة محمد، ص١٤.

من سيرة الرسول، بحيث أصبح المعقول فيها والممكن غير معقول وغير ممكن - أحيانا. وقد اتبع هيكل فى دراسته لحياة الرسول أسلوبًا لم ينس فيه **طريقة البحث العلمى** الذى استخدمه فى بعض أعماله من قبل، ولم ينس **محاجة المحاماة** التى عمل بها، وقوة وحرارة الكتابة التى تعبر عن وجهة نظر خاصة، كما تمرس بذلك فى الصحافة الحزبية، لذا نجده يذكر: «لعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى **بدأتُ هذا البحث فى العربية على الطريقة الحديثة**، وقد تأخذ القارىء الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد وبين الطريقة الجديدة من شبه قوى، فهذه الطريقة تقتضيك إذا أردت بحثًا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية. **وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر، وهى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته**»[1].

بهذا الأسلوب العلمى ومن أجل تلك الدوافع والأسباب مضى هيكل يؤلف كتابه معتمدًا فى ذلك على **القرآن الكريم وثلاثين مرجعًا عربيًا، كما اعتمد على تسعة كتب إنجليزية وخمسة فرنسية، وعلى المشورة الصادقة من بعض الزملاء والشيوخ**. وبالنسبة للمراجع يعنينا أن نذكر أن هيكل **اعتمد على ثلاثة كتب هامة فى بحثه أولها القرآن الكريم** الذى ألزم نفسه أن يمحص على ضوئه ما ورد فى كتب السيرة، كذلك اعتمد هيكل على **سيرة ابن هشام** ونقل عنها الكثير، حتى بلغ النقل أحيانًا صفحات بأكملها. ولعل عذره فى ذلك يرجع إلى أن سيرة ابن هشام التى رواها عن ابن اسحاق هى العمدة لكل باحث ودارس باعتبارها أول ما ألف عن الرسول. كذلك ناقش هيكل آراء **كثير من المستشرقين الغربيين سيما آراء إميل دور منجم الفرنسى**، وترجع كثرة مناقشاته له باعتباره أعدل من كتب عن محمد فى رأى هيكل.

مضمون الكتاب

الكتاب يعرضُ لحياة الرسول عليه السلام مرحلة إثر مرحلة، مبتدئًا بالتمهيد عن بلاد العرب قبل الإسلام وحضارته وعن الرسول من ميلاده إلى زواجه ثم إلى بعثه، وبعدها يروى تاريخ الإسلام حسب التاريخ الزمنى بأسلوب يجمع إلى روعة التحليل ودقة التعليل حسن السرد وجودة العبارة، إلى أن يصل إلى الفصل الحادى والثلاثين المسمىً دفن الرسول. أى إن الكتاب يدور فى حدود السيرة الشريفة، ولا يتعداها لروعة تلك الشخصية التى تحجب كل من عداها أو جاورها.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٥٠.

ثم يردف هذا **بخاتمة فى مبحثين: الأول: عن الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن الكريم**، ويقارن بين الحضارة الإسلامية والغربية، ثم يبين عجز الحضارة الغربية عن إسعاد البشرية. وبعدها ينتقل إلى بيان أسس الحضارة الإسلامية التى تجعل من العقل حكمًا فى كل شىء، وأن الإسلام لا توكل فيه، وأن ما فيه من استغاثة بالله يمثل طريقة مُثلى إلى الاهتداء إلى سنة الكون وطبيعته. ثم ينتقل من الجانب الروحى إلى الاجتماعى والاقتصادى، فيتحدث عن الاشتراكية العربية التى تقوم على الإخاء فى الحياة الروحية والخلقية والاقتصادية. وينتهى إلى أن الحضارة الإسلامية هى الحضارة الجديرة بالإنسانية الكفيلة حقًا بإسعادها.

المبحث الثانى: عن المستشرقين والحضارة الإسلامية، وفيه يفند مزاعم بعض المستشرقين إزاء بعض النواحى الإسلامية، ويبين لهم حقيقتها كما يذكر كثيرًا من المقارنات بين الإسلام والمسيحية التى قُصد منها إظهار الإسلام فى صورة غير لائقة، ثم يستطرد للحديث عن السلام العالمى الذى لم ينتشر، لأن روح التسامح الإسلامى التى هى أساس السلام لا تسود العالم.

وقد اتبع هيكل فى مناقشاته التى امتلأ بها كتابه الأسلوب العلمى فى البحث والتفكير فى أثناء رده على متعصِّبى الغرب وبعض الذين تصدوا لتاريخ الإسلام منهم. ولكن هل معنى هذه المنطقية أنه تخلص من عاطفته الدينية؟ الواقع أنه لا يمكن أن يُتصور ذلك، **لأن الكتاب كتبه مسلم مؤمن بدينه ورسوله، وفى ذهنه قبلا أن يدافع عن الدين والرسول المفترى عليهما، فلا بد أن تستقر العاطفة فى ضميره وإن لم تؤثر على الطريقة العلمية التى اتبعها**، لذلك نجد أن سيرة الرسول وحياته لم تغب فى متاهات المناقشات والمقارنات والردود التى امتلأ بها الكتاب، ومعنى هذا أن هيكل لم ينس شيئين:

الأول: لم ينس رغم هذا كله **سيرة الرسول الكريم وحياته على مر السنين** مرحلة إثر مرحلة حسب التاريخ الزمنى والمنطقى للأحداث، أى إن الصورة العظيمة النقية التى أراد أن يرسمها فى مؤلفه ظلت مشرقة وضاءة مصورة ما قام به الرسول من جليل الأعمال، وما نادى به من عظيم الآراء والمبادىء.

الثانى: إن العاطفة الدينية التى تمسك بها هيكل فى أثناء كتابته لم تنسه أصول المنهج العلمى فى البحث الذى أعلن أنه سيتمسك به.

وعلى هذا فقد خرج الكتاب زاخرًا بمنطقية العلم ورقة العاطفة، تجد فيه سلوى

للعقل ومتعة للقلب معًا، وهذه الثنائية بين العلم والأدب فى الكتاب هى التى تجعلنا نتردد حين نريد أن نحدد مكانة هذا الكتاب العظيم من الأنواع الأدبية، لأنه بهذه الصورة التى رسمناها يجمع بين خصائص السير التاريخية والتراجم الأدبية. وسوف نعود لمعالجة هذه الناحية بعد قليل.

* * *

الصديق أبو بكر -الفاروق عمر- عثمان

نشر هيكل سنة ١٩٤٢ كتابه عن أبى بكر، ثم نشر ١٩٤٤ الطبعة الأولى من جزأين عن عمر، ولم يتم الكتاب الذى أراد أن يكتبه عن عثمان وإلى قيام الدولة الأموية. ويبدو أنه **كان يريد أن يؤرخ للإمبراطورية الإسلامية ولشخصيات الإسلام الكبرى التى مهدت لانتشار الدين واتساع رقعة الدولة الإسلامية**. ولا شك أن دراسة الأمبراطورية الإسلامية وبيان أسباب نهضتها فى نظره وسيلة لشرح المبادىء السامية التى يقوم عليها الدين الإسلامى الكريم والأساليب العادلة التى استطاع بها حكامه الأولون أن يقيموا إمبراطورية كبيرة ويؤسسوا حضارة عريقة، وهذه المبادىء والأساليب فى نظر هيكل أكبر رد على الحاملين على الإسلام والمتجنين عليه، والبرهنة بالتالى على صدق ما جاء به محمد ﷺ وعلى سمو رسالته. وهيكل ينص على هذا الهدف النبيل، الذى يرجوه من وراء دراساته الإسلامية بقوله:

لقد جال بخاطرى منذ فرغت من كتابى حياة محمد وفى منزل الوحى أن أقوم بدراسات فى تاريخ هذه الإمبراطورية الإسلامية كانت أثرًا لتعاليم النبى العربى وسنته، أما وقد درست حياته ورأيت نتائج هذه الدراسات جديرة بأن تهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة التى تنشدها، فإن فى دراسة هذه الإمبراطورية وأطوارها ما يزيدنا قدرًا للتأسى بالرسول وتعاليمه، وما ييسر حظًا جديدًا من العلم بهذه الحياة الباهرة الجلاء، ليزيد العلماء اقتناعًا بما دعوتُ إليه من إمعان البحث فيما تنطوى عليه من حقائق نفسيه وأخرى روحية، وما يزال العلم يقف بوسائله حائرًا دونها، لا يستطيع أن يثبتها بأدلته ولا يستطيع مع ذلك أن ينفيها، وهى من بعدُ قوامُ سعادة الإنسان فى الحياة ومقوم سلوكه»[1].

كذلك يرى هيكل فى هذه الدراسات الدينية التاريخية ما يزيد المسلمين إيمانًا بدينهم وتأسيًا برسولهم. كما أن معرفة الماضى وسيلة لتطوير الحاضر وتحسين المستقبل على

(١) الصديق أبو بكر: دكتور هيكل، ص١٠.

الصورة المشرقة التى ترجوها لأمتنا الإسلامية العربية بل لجميع الأمم على حد سواء. . أى إن هيكل أراد أن يؤرخ تاريخًا صحيحًا للإمبراطورية الإسلامية من منشئها إلى بداية قيام الدولة الأموية، ويظهر هذا التاريخ بصورته المشرقة باعتباره ثمرة لغرس محمد ودينه، ليكون مادة طيبة للوحى والاستلهام لحضارة جديدة، أساسها أن معرفة الماضى وسيلة لتطوير الحاضر وتحسين المستقبل على النحو المشرق الذى يرجى للأقطار الإسلامية العربية.

كما أن هيكل كان يضمر لأبطال الإسلام الأول قدرًا من التقدير والتوقير، لا كشخصيات كاملة الإيمان فحسب، بل كشخصيات تاريخية استطاعت أن تقيم إمبراطورية، تثير الدهشة وتدعو إلى العجب. يستوى هذا الكلام بالنسبة لأبى بكر صديق الرسول وخليفته وحزمه الذى قضى على الردة وأذن بالفتح الإسلامى لتكوين الإمبراطورية ونشر الدين الإسلامى الذى أرسل إلى الناس كافة. كل هذا حدث فى ثلاث سنوات اضطربت فى التأريخ لها كتب الرواة وأهل الأخبار بالإضافة إلى قلة ما يروى عن عهده. كل هذا يجعلنا نقدر مجهود هيكل فى التأريخ لعصر الصديق -رضى الله عنه.

يتساوى هذا الإعجاب أيضًا بالنسبة لشخصية الفاروق عمر رضى الله عنه، ويرجع ذلك الإعجاب إلى قيام الإمبراطورية الإسلامية العظيمة فى عهده. وقيامها فى عشر سنوات يعدُّ - بلاريب - معجزة تحسب للفاروق. .

«أما وقد تمت فى عهد عمر وبتوجيهه فهو - لا جرم - رجل عظيم»[1].

كذلك يستوى هذا الإعجاب بالنسبة للفصول التى خلفها هيكل فيما كان يريد كتابته عن عثمان خاصة فى الفصل الرابع، الذى أراد أن يبين فيه أن عثمان هو الخليفة الذى فتح باب الحضارة وأسبابها على مصراعيه، لتدخل إلى الدولة الإسلامية بعد أن سارت على سياسة التقشف فى عهد الفاروق، أى إن التطور ألقى على عثمان مسئولية أن يضاعف جهده لتنظيم الحياة المدنية تمهيدًا للحضارة التى وضع القرآن أسبابها[2].

وينبغى أن نحترس ونحن نذكر إعجاب هيكل بهذه الشخصيات الإسلامية التى أرخ لها، لأن الذى كان يعجب هيكل فى الدرجة الأولى هو الإمبراطورية الإسلامية التى

---

(١) الفاروق عمر: دكتور هيكل، جـ١ ص١.

(٢) صدر كتاب عثمان بن عفان - فيما بعد -وقد أكمل الأجزاء الباقية منه المؤرخ الإسلامى الجليل أ.د. جمال سرور -الأستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

وضع غرسها الرسول ﷺ. ولذلك سنجد أن معظم هذ الكتب تميل كل الميل أو أكثره ناحية السير التاريخية، ولا يمكن أن ينسينا الأسلوب الأدبى الرائق - الذى كتب به هيكل هذه الكتب - شدة اتكائه وحرصه على التاريخ السليم للإمبراطورية الإسلامية، وكثرة مناقشاته التاريخية وتحقيقه لما ذكره بعض المؤرخين والمستشرقين. ومن أجل هذا كانت تختفى كثيرا صورة، بل صوت من يؤرخ لهم من أصحاب هذه الكتب، مما يجعل هذه الكتب أقرب إلى السير التاريخية.

منهج هيكل

قبل أن نذكر رأينا الأخير فى تحديد مكانة هذه الكتب المتنوعة من الأنواع الأدبية نقف وقفة قصيرة نتحدث فيها عن منهج هيكل فى كتابة السير الدينية بعد أن اتضح لنا سر تأليفه لهذه الكتب الإسلامية.

وإذا أردنا أن نعرف منهج هيكل فى كتابه السير الدينية، فينبغى أن ندرك أنه اعتمد فى دراسته لرسول الإسلام وتأريخه لقيام الإمبراطورية الإسلامية على **منهج علمى متكامل**. وقد سبق أن أوضح البحث أنه عند كتابته لحياة محمد اعتمد على الطريقة العلمية الحديثة التى رآها نابعة من دين محمد ومن تعاليمه، لذلك رأيناه يعتمد فى هذا الكتاب على التحليل والتعليل والمناقشة والمقارنة والاستنباط. وقد لازمته هذه الطريقة فى بقية دراساته الإسلامية، لذلك نجده ينص فى مقدمتى سيرة الصديق والفاروق على أنه سيتبع الطريقة نفسها، فيذكر فى مقدمة سيرة الصديق فى أثناء حديثه عن تاريخ الإمبراطورية الإسلامية: «وهو تاريخ جدير بأن يدون على طريقة من البحث العلمى الدقيق الذى لا يعرف التعصب ولا يرضاه، والذى يرمى إلى تحليل الحوادث وردها إلى أسبابها تحليلا يقره العقل، ويتفق لذلك وما ركب فى الطبيعة الإنسانية من نزوع روحى إلى الكمال[1]».

كما ينص فى مقدمة الفاروق -أيضا- على هذا المبدأ: «والمؤرخ الذى ينقطع لدرس عهد بذاته من كل نواحيه، يُقسِّم هذا العهد وإن قصر، ويفرد لكل ناحية منه دراسة خاصة قد تستغرق المجلد أو المجلدات، فإذا أراد أن يلخص هذه النواحى جميعا، كان تلخيصه أدنى إلى البحث فى فلسفة التاريخ منه إلى التاريخ نفسه[2]».

---

(١) الصديق أبو بكر، ص ٢١.

(٢) الفاروق عمر، جـ ١ ص ١١.

ثم يذكر ما كان ينوى أن يعـمله فى كتابه عن عثمان: «وفى نيـتى أن أجعل وجهتى فى الحلقة الرابـعة من هذا البحث إلى تحليل مـا حدث بين خـلافة عثـمان وملك بنى أمية[1]».

من هذا العرض نجد أن هيكل كـان يعى بحق أنه إنما يريد التأريخ للإمبراطورية الإسـلامية وبحث هذا التـاريخ على مـنهج علمى دقـيق، ليـقـدم هذا التـاريخ فى ثوب مـوضـوعى نقى وبطريقة لا تقـبل الخلاف ولا يرقى إليـها الشك. ولهذا يمكن أن نعـد هيكل فى هذا الشأن صاحب رؤية خاصة فى تدوين التاريخ الإسلامـى وبحثه، هذه الوجهة هى ما يمكن أن نسميـه بالنقد التاريخى، الذى يعتـمد على ما سبق ذكره من أسـاليب البحث العلمى، بالإضافـة إلى ناحية فلسفـية تهتم بالتـعليل وذكر المسبـبات التى تنشأ عنها الأسـباب. والبحث علـى هذه الوتيرة ليس ببعـيد على إنسـان درس القانون والاقتـصاد السـياسى وعالج البحث العلمى فى رسالتـه للدكتوراه، بالإضافة إلى ثقافة واسعـة غربية وعربية أدبية وتاريخيـة واسعة. وقد حرص البحث على أن يـبين الأسلوب العلمى الذى اتبعه هيكل فى هذه الكتب، لـكننا نلاحظ مع هذا أن هيكل حين كـان يقـدم التاريخ بهـذه الصورة، فإنه يخرجه من خلال نفسه لا من خلال الأسانيد التاريخية وما يمكن أن ينقل بنصه عن الرواة وأهل الأخـبار. فمـا يفعله أنه يقرأ الحـادثة التى يتعرض لهـا بالبحث والتأريخ والكتابة ويـديرها فى فكره، ثم يعبر عنها من خلال نـفس أدبية، لا تنسى ما يربطها بالأدب حتى حين تتعرض للكتابة التـاريخية. أى أن هيكل فى سيره وتراجمه لا يحترم من التاريخ إلا روحـه ومضمونه، أما الأسلوب الذى يعبر به عـما يكتب، فهذا شئ (هيكلى) الطابع أدبى السمات - كما سنلاحظ بعد قليل.

* * *

بين السير والتراجم:

يذهب البعض إلى أنه ليس فـى الفروق اللغوية ما يُبـيِّن الفرق بين السيـر والتراجم «على وجه التحـديد إلا أن الاصطلاح والاستعمال همـا صاحبا الفتـوى فى هذا. فقد جرت عادة المؤرخين أن يسـموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتـب فيها، فإذا ما طال النفس واتسعت سميت سيرة[2]». كذلك جاء فى دائرة المعارف مادة سيرة: «السيـرة هى الترجـمة المأثورة لحـياة النبى مـحمد علـيه السلام، وهناك مـا يدل على

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٣٤٨.

(٢) التراجم والسير: عبد الغنى حسن، ص ٢٧.

استعمالها بمعنى ترجمة لحياة النبى -عليه السلام- ثم إن كلمة سيرة كانت تستعمل فى تلك الأيام (الإسلامية الأولى) حقا للدلالة على ترجمة الحياة بصفة عامة[1]». ورأى آخر يذهب إلى أن «السيرة ترجمة فنية لتاريخ رجل نجح[2]».

ثمة رأى رابع يميل إلى أن «التراجم تشمل العنصرين الأساسيين للعمل الأدبى: التجربة الشعورية والعبارة الموحية عن هذه التجربة، لأن إحساس المؤلف بحياة من يترجم له وبظروفه وحالاته النفسية وتطبيقها على تجاربه هو فى عالم الشعور والحياة ومحاولة استنفاذ الملابسات التى أحاطت بحياة بطله. فإذا خلت الترجمة من هذين العنصرين أو من أحدهما استحالت سيرة أو تاريخا بعيدا عن عالم الأدب. فمجرد سرد الحوادث والوقائع مهما بلغ من الدقة والتفصيل والتحقيق ليس هو الترجمة، وإنما هو المادة الخامة التى تصنع منها الترجمة حين يتناولها مؤلف موهوب[3]».

هذه أربعة آراء نجد الأول منها يفرق بين السيرة والترجمة على أساس الكم وطول النفس، وهذا معيار لا يمكن التسليم به. والثانى يدل على استخدام الكلمتين بمعنى واحد منذ العصور الأولى، وهذا التزاوج فى استخدام الكلمتين قد يكون مسئولا عن اضطراب المعنى فى الرأى الثالث. بقى الرأى الأخير الذى يمكن الاطمئنان إليه، لأنه يميز بين السير التى تعد تاريخا وتجميعا لحوادث ووقائع تاريخية، والترجمة التى تعد ضربا من الأنواع الأدبية، فتشمل التجربة الشعورية بعد أن تختلط الوقائع والحوادث بنفسية الأديب ووجدانه فيخرجها ممتزجة بنفسه وعبير روحه وبعبارته الموحية لتلك التجربة التى نقلها من الواقع التاريخى إلى الحيز النفسى، حيثُ يعيد تشكيلها ويقدمها فى صورة جديدة.

على هذا يختلف عمل المؤرخ عن عمل الأديب، فالأول ينقل إلينا الحقيقة التاريخية كما وقعت، فى الوقت الذى يقدم فيه الأديب تجربة فنية كاملة بعد أن استوعب إطار حياة المترجم له، واتضحت أمام نفسه معالم شخصية المترجم له بحسه الأدبى وذوقه الفنى. وهنا يذكر فنست أن «الترجمة عبارة عن قصة حياة إنسان من الناس، وهى أقرب إلى أن تكون تجربة شعورية، وإن كانت من الأنواع المتفرعة عن التاريخ[4]».

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، جـ ١٢ ص ٤٣٩.

(٢) الأصمعى: د. أحمد كمال. أعلام العرب، العدد ١٨، ص ٤.

(٣) النقد الأدبى: سيد قطب، ص ٩٢.

(٤) نظرية الأنواع الأدبية، جـ ٢ ص ٥٦.

ويلاحظ فى الترجمة الغيرية - غالبا - أن المترجم معجب بالشخصية التى يترجم لها، لذلك تختلف صورة الشخص الواحد إذا ما تناول الترجمة له مؤلفون كثيرون، بل إن الصورة التى تخرج عليها حياة المترجم له تختلف بالتالى من شخص لآخر. فحياة محمد تختلف عن عبقرية محمد للعقاد، وهما بالتالى تختلفان عن كتابى «محمد» للحكيم و«على هامش السيرة» لطه حسين. وهذا الاختلاف الأدبى فى طريقة التناول مرده إلى الاختلاف النفسى بين الكتاب الأربعة، أى إن الناحية النفسية والمزاج الخاص يؤثران فى عمل الأديب لا من حيث المضمون فحسب، بل من حيث الأشكال المختلفة لتلك الأنواع الأدبية. ولعل فى هذا ما يؤكد ما يميل إليه الباحث من أن **الترجمة الأدبية فيها قدر كبير من التجربة الشعورية التى تصاحب الخلق الفنى عند الكتابة.**

نخلص من هذا إلى أن هناك **فروقا جوهرية بين السيرة التاريخية والترجمة الأدبية، وإن كانت المادة الخام بالنسبة لهما واحدة.** فالسيرة تعنى بسرد الحوادث والوقائع وتحترم النص ولا تغيره وإن كانت تناقشه، كما لا تستطيع أن تكمل الحلقات الناقصة فى تاريخ إنسان عظيم إذا ما أهملها الرواة وأهل الأخبار. أما الترجمة الأدبية فهى تتطلب من الأديب أن يصهر تاريخ الإنسان الذى يترجم له فى نفسه، ويقدم لنا تجربة نفسية متصلة الحلقات وإن كانت غير كاملة فى الواقع، بالإضافة إلى اعتمادها على الأسلوب الأدبى الذى تتطلبه كل الأعمال الفنية فى الأدب. ومن المفيد هنا أن نذكر رأى بودلير الذى يوضح هذه الحقيقة فهو يرى: «إن العبقرية الأدبية عبقرية مدركة واعية تعتمد على العقل كما تعتمد العبقرية العلمية تماما، غير أنها تمتاز على العبقرية العلمية بأنها قادرة على اكتشاف العلاقات بين المشاعر والأشياء وبعضها - فى نطاق أشمل وأوسع من النطاق الذى تعمل فيه العبقرية العلمية[1]».

* * *

تقويم.. وتعقيب

بقى أن نحدد مكانة هذه الكتب التى خلفها هيكل على ضوء المفاهيم التى حددناها للسير والتراجم. أما فيما يتصل بكتاب روسو فقد أكد البحث من قبل إعجاب هيكل بشخصيته واستيعابه لآرائه ودفاعه عن كثير من المواقف التى تستحق الدفاع أو التنويه،

(١) ما هو الأدب؟: الدكتور رشاد رشدى، ص ٨٤.

فـإذا أضفنا إلى هذا الإعـجاب أن هيكل حين كـان يكتب عنه إنما حـاول أن يرسم له صورة متكاملة، اندمج فى أثناء رسم كثير من تفاصيلها بإحساسه وعاطفته، ورسم هذه الصورة بأسلوبه الأدبى الرائق، مما يجـعل الباحث يميل إلى أن يعد هذا الكتـاب ترجمة أدبية فيها الكثير مما تتطلبه الترجمة من الإحساس النفسى الذى يربط المترجم بالمترجم له والأسلوب الأدبى الذى يغلف قصة الحياة التى يرسمها الكاتب.

أما فيما يتعلق بكتاب «**تراجم مصرية وغربية**»، فقد سبق أن عرضنا له وبينا أن مؤلفه ذكر فى تقـديمه تحرجه من وضـع كلمة تراجم عنوانا له، ولعل كلمـة شخصـيات التى وضعت على الطبعة الثانية للكتاب أقرب إلى الحقيقة من الأولى.

فهـذا الكتاب لا يمكن أن تسلكه فى نطاق دائرة التـراجم الأدبية إلا على سبـيل التوسع فى استـخدام المصطلح، لأنه لا يحمل لمن كـتب عنهم تجربة كاملة، ولا يحكى قصـة حياة بجميع أطرافها، وإنما هو تعريف للقـراء (سواء قراء الكتاب، أو من سبقت لهم قراءته مجزءا فى جريدة السياسة الأسبوعية) -عن بعض النواحى التى امتاز بها من كتب عنهم لحبه لهم وإعجابه بهم.

لكن الطابع الأدبى رغم هذا واضح فى كـتابه عـن الشخـصيـات التاريخـية وغـير التاريخية، إنه يتحدث عن الشخصيات التاريخية بأسلوب أدبى، لا يقل روعة عما كتب به عن الشخصيات الأدبية. فهو مثلا حين يتحدث عن مصطفى كامل يصفه بأنه «شاعر الوطنية»، بل تحس شعورًا فياضًا فى كتابة هيكل عنه وعن غيره من الرجال الذين كتب عنهم نتيجة إعجاب بشخصياتهم. ولا يمكن أن نخدع فى أنه يريد بما كتبه عن المصريين أن يكتب تاريخًا عنهم، أو يصحح ما يتصل بتاريخهم من حوادث.

وقد سبق أن نقلنا أن هيكل يصر على عنايته بالتاريخ، لكننا رأيناه أكثر إصرارًا على التمسك بالأدب والإحساس الشعورى وإظهـار الإعجاب البالغ بكل من يتحدث عنهم؛ ومن هنا لا نكاد نسـتطيع أن نفـرق فى الدرجـة الفنيـة للكتـابة بين مـا كـتب عنه من المصريين أو الغربيين. ومحتوى الكتاب - نتيجة عدم شمول الترجمة لجميع نواحى حياة من يكتب عنهم - يجعلنا نعده أقرب إلى مقالات الترجمة الذاتية، التى سنتحدث عنها فى الباب الأخير.

* * *

وأما بالنسبة لكتاب حياة محمد ﷺ فقد سبق أن ذكرنا أنه يجمع بين منطقية العلم ورقة العاطفة. وهذه الثنائية تجعلنا نحار فى تحديد مكانة الكتاب. يجلو هذه الحيرة ما سبق أن قلناه من أن هيكل لم ينس صورة الرسول الكريم التى كان يريد أن يرسمها له، كما لم ينس عاطفته الدينية -لا فى أثناء سرد حياة الرسول أو حتى فى أثناء المناقشات والردود على من يختلف معهم.

أكثر من هذا أننا نجد هيكل القصصى يطل برأسه -بوضوح- فى ثنايا هذا الكتاب الدينى. من ذلك وصفه للغو بعض المستشرقين فى مسألة زواج زينب بنت جحش فيذكر: «ويطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم العنان حين يتحدثون من حديث محمد فى هذا الموضوع، حتى يصور بعضهم زينب ساعة رآها النبى وهى نصف عارية أو تكاد، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يكنه من كل معانى الهوى. وليذكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب، وكانت ممددة على فراشها فى ثياب نومها، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها، فكتم ما فى نفسه وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلا..»[1].

وأطرف من ذلك أنه يرد على هذه الحادثة ويصححها بأسلوب أكثر رقة وأشد إيغالا فى الأدب: «أما قصة زينب جحش وما أضفى بعض الرواة وأضفى المستشرقون والمبشرون عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام وولع. فالتاريخ الصحيح يحكم بأنها من مفاخر محمد، وأنه وهو المثل الكامل للإيمان، وقد طبق فيها حديثه الذى معناه: لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وقد جعل نفسه أول من يضرب المثل لما يضع من تشريع يمحو به تقاليد الجاهلية وعاداتها، ويقر به النظام الجديد الذى أنزل الله هدى ورحمة للعالمين.

«ويكفى لهدم كل القصة من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه، هى ابنة أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله عليه السلام، وأنها رُبيت بعينه وعنايته، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى، وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيدًا، وأنه شهدها فى نموها تحبو من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب، وأنه هو الذى خطبها على زيد مولاه. إذ عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل

(١) حياة محمد - الطبعة الأولى، ص ٢٧٤.

تلك الخيالات والأقاصيص من أنه مر ببيت زيد، ولم يكن فيه، فرأى زينب فبهره حسنها وقال: سبحان مقلب القلوب، أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذى على غرفة زينب فألفاها فى قميصها ممددة وكأنها «مدام ركاميه»، فانقلب قلبه فجأة ونسى سودة وحفصة وزينب بنت مخزوم وأم سلمة، ونسى كذلك ذكر خديجة التى كانت عائشة تقول: إنها لم تجد فى نفسها غيرة من أحد من نساء النبى ما وجدت من ذكر خديجة. ولو أن شيئا من حبها علق بقلبه لخطبها إلى أهلها على نفسه بدل أن يخطبها على زيد. وهذه الصلة بين زينب ومحمد وهذا التصوير الذى صورناها به لا يدعان بعدهما لتلك القصة الخيالية التى يروون أى أساس أو أى حق من البقاء»[1].

ومن تلك التعليلات ما ذكره هيكل حين مال إلى الرأى الذى يقول إن إسراء النبى عليه السلام كان بالروح فيذكر: «الإسراء بالروح هو فى معناه كالإسراء والمعراج بالروح والجسد جميعًا سموًا وجمالاً وجلالاً، فهو تصوير قوى للوحدة الروحية من أزل الوجود إلى أبده. فهذا التعريج على جبل سيناء حيث كلم الله موسى تكليما، وعلى بيت لحم حيث ولد عيسى، وهذا الاجتماع الروحى ضمت الصلاة فيه محمدًا وعيسى وموسى وإبراهيم، مظهر قوى لوحدة الحياة الدينية على أنها من قوام وحدة الكون فى موره الدائم إلى الكمال.

«والعلم فى عصرنا الحاضر يقر هذا الإسراء بالروح ويقر المعراج بالروح، فحيث تتقابل القوى السليمة يشع ضياء الحقيقة، كما أن تقابل قوى الكون فى صورة معينة قد طوع «لماركونى» إذ سلط تيارًا كهربيًا خاصًا من سفينته التى كانت راسية بالبندقية أن يضىء بقوة موجات الأثير مدينة سدنى فى أستراليا. وفى عصرنا يقر العلم نظريات قراءة الأفكار ومعرفة ما تنطوى عليه، كما يقر انتقال الأصوات على الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتوبات كذلك، مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال، وما تزال القوى الكمينة فى الكون تتكشف لعلمنا كل يوم عن جديد. فإذا بلغ روحٌ من القوة ومن السلطان ما بلغت نفس محمد فأسرى به الله ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليريه من آياته، كان ذلك مما يقر العلم، وكانت حكمة ذلك هذه المعانى القوية السامية فى جمالها وجلالها، والتى تصور الوحدة الروحية

(١) المصدر السابق.. بالتفصيل، ص ٢٩٠ وما بعدها.

ووحدة الكون فى نفس محمد تصويراً صريحًا، يستطيع الإنسان أن يصل إلى إدراكه إذا هو حاول السمو بنفسه عن أوهام العاجلة فى الحياة، وحاول الوصول إلى كنه الحقيقة العليا ليعرف حقيقة مكانه ومكان العالم كله منها»[1].

من هذين الموقفين اللذين سقناهما للمثال -لا للحصر- نستدل على أن هيكل يعلل لما يراه من أحداث تتصل بسيرة النبى ومعجزاته بأسباب عقلية، يلتمس لها الدليل من ثقافته الشخصية وتكوينه الفكرى الحديث، وإن كان هذا لا ينفى أنه يستخدم الأدلة المنطقية والدينية والتاريخية المتواترة فى كثير من الحالات. نريد أن نخلص من كل هذا إلى أن السيرة التاريخية للنبى ﷺ لم تفقد -فى مؤلفه الضخم- الكثير من تفاصيلها التاريخية الصادقة، ومع ذلك نرى الأسلوب العاطفى والإحساس الأدبى الذى يستشف فيه المترجم إحساسات المترجم له وما قد يجول بذهنه فى بعض المواقف التى يتعرض لها المترجم بالكتابة أو التحليل أو الرد. بالإضافة إلى الاستعانة بما للعصر والثقافة من تأثيرات بالغة فى فكر هيكل وأسلوبه فى الكتابة. وإذا ما أضفنا إلى كل هذا ما سبق أن ذكرناه من أن هيكل كان يروى التاريخ من خلال نفسه أكثر مما يرويه من ثنايا أسانيد الرواة، أدركنا أن الكتاب **ترجمة أدبية صادقة** -فيها الكثير مما تتطلبه الترجمة من سمات وخصائص ذكرناها من قبل -وإن لم تغب فيها منطقية التاريخ وأحداثه المتسلسلة ومحاولة التعقيل لكثير من الحوادث والمناسبات التى تتطلب ذلك.

أما فيما يتعلق **بكتب الخلفاء الراشدين** فقد ظهر أن الغرض الأساسى من كتابتها كان التأريخ الحق للإمبراطورية الإسلامية، ولم يكن يعجب هيكل بشخصية هؤلاء الخلفاء باعتبارهم نماذج مؤمنة تستحق الإعجاب فحسب، بل كان يعنيه ما أبدوه من خدمات للإمبراطورية الإسلامية، لأن كل صحابة الرسول رضوان الله عليه وعليهم كانوا على حد متقارب فى الصفاء الروحى، وعلى هذا نجد كتب هيكل ينطبق عليها حقيقة الإعجاب بالعهد التاريخى لهم فى المرتبة الأولى والأهم. وإذا ما تناولنا كتاب الصديق كمثال لتأكيد هذه الحقيقة نجد أن مضمونه يمكن أن يصور بشكل هرمى، ففى الفصل الأول، والفصل الثانى حديث عن أبى بكر، وكذلك فى الفصل الأخير، أى إن البداية والنهاية فيها حديث عن أبى بكر، ولكنه حديث مؤرخ لا مترجم. أما ماعدا هذه

(١) المصدر السابق، ص ١٥٩.

الفصول الثلاثة فإن صورة أبى بكر فيها شاحبة وحديثه عنه لا يأتى إلا لماما، أى إن الكتاب فى معظمه يكاد يكون خلوًا من أبى بكر، يضاف إلى ذلك أن المؤلف يعترف أنه: «إنما يؤرخ لعهد الصديق فحسب، وأنه يقف فى حدود هذا العهد القصير»[1].

يكاد هذا الرأى ينطبق على كتاب عمر، وعلى الصفحات التى كتبت عن عثمان. وعلى هذين الأساسين: أساس خفوت صوت من يؤرخ له ويكتب عنه، وأساس اعترافه فى مقدمتى «أبو بكر وعمر» (ينص أيضا فى مقدمة عمر على أنه يؤرخ لنشأة الإمبراطورية الإسلامية)[2]. إذن لا يمكن أن نضع هذه الكتب التى كتبها عن الخلفاء الراشدين -مع عذوبة لغتها ورقتها ضمن كتب التراجم الأدبية، وإنما هى **سير تاريخية**، تعنى بالتاريخ الإسلامى فى المرتبة الأولى والأخيرة بالطريقة الأدبية التى ذكرت من قبل. كما أننا نفتقد فى دراسات هيكل التاريخية كلها اللمسة الفنية التى تتعمق الشخصية المدروسة، وتعيش معها وتعطينا حياتها من الداخل لصعوبة ذلك -من الناحية الدينية على الأقل.

ويبقى لهذه السلسلة من الكتب الإسلامية **مكانة الريادة فى تقديم التاريخ الإسلامى** فى صورة أقرب إلى الأدب وإلى نفس القراء، وقد جاءتها الصلة بالأدب من ناحية أن هيكل الأديب لم ينس وهو يكتبها ما يربطه بالأدب من صلات ووشائج. وعلى هذا جمعت هذه الدراسات بين دقة البحث العلمى ورقة التعبير الأدبى مما جعلها قريبة من العقل والقلب معا، لأن «التاريخ بواسطة الفن يغدو تعبيرًا صادقا وموفقًا وبعثًا كاملا للماضى، وهذا بفضل خيال المؤرخ وإحساسه»[3].

وفى نهاية هذا المبحث لا ينسى لهيكل ما قدم من آثار فكرية فى مجال السير والتراجم، بل إنه من الممكن أن يعد من رواد الفكر فى العصر الحديث، إذ كان يلزم نفسه بأن يقدم لمواطنيه من الغذاء الفكرى ما يضمن لهم الاستمتاع بالحياة على خير وجوهها، كما يضمن لهم تحسين الحاضر وتطوير المستقبل على صورة سامية مشرفة. وهذا هو ما حدا بالأستاذ العقاد إلى أن يقول عنه: «ولا شك أن هيكلا المؤرخ وكاتب

---

(١) الصديق أبو بكر، ص ٢٢.

(٢) الفاروق عمر، جـ ١ ص ١٣.

(٣) نظرية الأنواع الأدبية، جـ ٢ ص ٤٧.

السيرة جدير بأن يسلك فى عداد نوابغ مصر والأمة العربية، بل جدير بأن يسلك فى عداد الكتاب العالميين، إن جاز أن يكون مصريًا فحسب فى غير هذا المجال»»[1].

* * *

تعقيب

ترك هيكل فى مجال السير الغيرية ستة كتب مهمة، وهى على التوالى: جان جاك روسو (١٩٢١ - ١٩٢٣) - تراجم مصرية وغربية (١٩٢٩) حياة محمد (١٩٣٥) - الصديق أبو بكر (١٩٤٢) - الفاروق عمر (١٩٤٤) - عثمان بن عفان- الذى صدر بعد وفاته (١٩٧٤). بالإضافة إلى ما يمكن أن يوجد من مقالات لم تجمع خاصة فى «السياسة الأسبوعية» - حول بعض الشخصيات الفكرية والأدبية[*].

كلمة سيرة.. وترجمة: مصطلحات مترادفان، ويستخدمان بمفهوم واحد تقريبا، لكن المصطلح الأول (سيرة) أقدم من الثانى. والسيرة نوع معرفى متعدد الهوية.. وقد نشأت السيرة فى البداية فى رحم التاريخ: السياسى والدينى.

وتدخل السيرة مجال الأدب إذا كان الكاتب يهدف إلى تقديم رؤية خاصة إزاء الشخصية التى يكتب عنها سواء بالدفاع وتجميل الصورة أو بالنقد وتشويه الشخصية. وهنا تلتقى السيرة الأدبية مع الرواية التاريخية، ويقتربان -فنيا- بدرجة يمكن فيها أن نطبق قواعد الرواية التاريخية على السيرة الأدبية سواء أكانت ذاتية (كتبها أديب عن حياته) أم غيرية (كتبها أديب عن غيره).

ومعظم الكتب التى تركها هيكل.. تعد نماذج فنية عظيمة فى إطار تاريخ السير الفنية فى أدبنا العربى الحديث. وهذه السير الأدبية- بالإضافة إلى مالها من قيم دينية وتاريخية- تعد نصوصًا أدبية رائعة سواء على مستوى بناء الشخصية أو تشكيل الحدث أو تصوير الإطار الزمانى والمكانى، الذى تتحرك فيه شخصية بطل السيرة.. وغير ذلك من عناصر السرد الروائى. معنى هذا أن السيرة نوع أدبى، يقوم على مضمون تاريخى،

---

(١) من مقالة بكتاب: الدكتور محمد حسين هيكل، ص ٢١٣.

(*) راجع البليوجرافيا المرفقة فى نهاية الكتاب عن مقالات السياسة الأسبوعية.. وراجع أيضا كتاب «فى أوقات الفراغ».

يتشكل فى إطار بناء روائى قريب من الرواية التاريخية.

أخيـرا.. فإن هيكل يعد واحدا من الروَّاد، الـذين أسهموا -بدور بارز- فى كـتابة السيرة الغيرية الأدبية، ودوره فى تأصيل هذا النوع الأدبى وتثبيت دعائمه الفنية، لا يقل عن دوره فى مـجال ريادة الفن الروائى، أو تثـبيـت قيم النقـد الرومانسى، أو تحـديد خصائص المقـال الأدبى. ومعنى هذا أن **هيكل له دور مـتعدد المجـالات فى تاريخ الثقـافة العربية الحديثة.**

* * *